إذن : فقوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ .. (١٦) ﴾ [العنكبوت] أي : قانون الصيانة الربانى بافعل كذا ولا تفعل كذا ، وإياك أنْ تنقل مدلول (افعل) فى (لا تفعل) أو مدلول (لا تفعل) فى (افعل) ، وقد شبَّهنا هذا القانون (بالكتالوج) الذى يجعله الصانع لحماية الصنعة المادية لتؤدى مهمتها على أكمل وجه ، كذلك منهج الله بالنسبة للخَلْق ، فإنْ لم تعلموا هذه القضية فلن ينفعكم علم بعد ذلك .

يقول سبحانه : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠) ﴾[الشورى]

إذن : فالخير الباقى هو الخير فى الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ .. (١٧) ﴾ [العنكبوت] أى : على حَدِّ زعمهم ، وعلى حَدِّ قولهم : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. (٣) ﴾ [الزمر] ، وإلا فلا عبادة لهذه الآلهة ، حيث لا أمر عندهم ولا نهى ولا منهج ، فعبادتهم إذن باطلة .

وهم يعبدون الأوثان من دون الله فإنْ ضُيِّق عليهم الخنَاق قالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. (٣) ﴾ [الزمر] فهم بذلك مشركون ، ومن لم يَقُلْ بهذا القول فهو كافر .

والوثن : ما نُصب للتقديس من حجر ، أياً كان نوعه : حجر جيرى ، أو جرانيت ، أو مرمر . أو كان من معدن : ذهب أو فضة أو نحاس .. إلخ أو من خشب ، وقد كان البعض منهم يصنعه من (العجوة) ، فإنْ جاع أكله ، وقد حكَى هذا على سبيل التعجُّب سيدنا عمر رضى الله عنه .

وبأيِّ عقل أو منطق أنْ تذهب إلى الجبل وتستحسن منه حجراً فتنحته على صورة معينة ، ثم تتخذه إلهاً تعبده من دون الله ، وهو صَنْعة يدك ، وإنْ أطاحتْ به الريح أقمتَه ، وإنْ كسرته رُحْت تُصلح ما تكسَّر منه وتُرمِّمه ، فأىُّ عقل يمكن أن يقبل هذا العمل ؟

لذلك يخاطبهم القرآن : ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) ﴾ [الصافات] وكلما تقدَّم العالم تلاشتْ منه هذه الظاهرة ؛ لأنها مسألة لم تَعُدْ تناسب العقل بأية حال .

ومعنى ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا .. (١٧) ﴾ [العنكبوت] أى : توجدون ، والإيجاد يكون من عدم ، فهم يُوجدون من عدم ، لكن أيُوجدون صدْقاً ؟ أم يُوجدون كذباً ؟ إنهم يُوجدون ﴿ إِفْكًا .. (١٧) ﴾ [العنكبوت] والإفك تعمُّد الكذب الذى يقلب الحقائق ، ومن ذلك قوله سبحانه : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) ﴾ [النجم] أى : القرى التى كفأها الله على نفسها .

وسبق أن أوضحنا أن الحقيقة هى القضية الصادقة التى توافق الواقع ، فلو قُلْت مثلاً : محمد كريم ، فلا بُدَّ أن هناك شخصاً اسمه محمد وله صفة الكرم ، فإنِ اختلف الواقع فلم يوجد محمد أو وُجد ولم تتوفر له صفة الكرم ، فالقضية كاذبة لأنها مخالفة للواقع ، هذا هو الإفك .

فالحق سبحانه لا يعيب عليهم الخَلْق ؛ لأنه أثبت للعباد خَلْقاً ، فقال سبحانه : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون]

والفَرْق أنك تخلق من موجود ، أما الحق سبحانه فيخلق من العدم ، فأنت تُوجد الثوب من القطن مثلاً ، وكوبَ الزجاج من الرمل ، والمحراثَ من الحديد .. إلخ فأوجدتَ معدوماً عن موجود سابق ، أما الخالق سبحانه فأوجد معدوماً عن لا موجود .

وسبق أنْ أوضحنا أن صَنْعة البشر تجمد على حالها ، فالسكين مثلاً يظل سكيناً لا يكبر ، حتى يصير ساطوراً مثلاً ، والكوب لا يلد لنا أكواباً أخرى . لكن خَلْقة الله سبحانه لها صفة النمو والحياة والتكاثر .. إلخ ؛ لذلك أنصفك الله فوصفك بأنك خالق ، لكن هو سبحانه أحسن الخالقين .

إذن : الحق سبحانه لا يعيب على هؤلاء أنهم يخلقون ، إنما يعيب عليهم أنْ يخلقوا إفْكاً وكذباً .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [العنكبوت] في موضع آخر بيَّن لهم الحق سبحانه أنهم يعبدون آلهة لا تضر ولا تنفع ، وهنا يذكر مسألة مهمة هي استبقاء الحياة للإنسان بالقُوت الذى نسميه الرزق ، فهذه الآلهة التى تعبدونها من دون الله لا تملك لكم رزقاً ، ولو امتنع عنكم المطر وأجدبت الأرض لمتُّم من الجوع .

إذن : كان عليكم أنْ تتأملوا : من أين تأتى مقومات حياتكم ، ومَنْ صاحب الفضل فيها ، فتتوجَّهون إليه بالعبادة والطاعة ، كما نقول فى المثل (اللى ياكل لقمتى يسمع كلمتى) إنما أُطعمك وتسمع لغيرى ؟!!

والرزق هو الشُغل الشاغل عند الناس ، ففى أول الأمر كلنا يجتهد لنأكل ونشرب ونعيش ، فلما تتحسَّن الأمور نرغب فى التخزين للمستقبل ، فالموظف مثلاً يدخر لشهر ، والزارع يدخر للعام كله .

ومن أعاجيب هذه المسألة أنك تجد الإنسان والفأر والنمل هم الوحيدون بين مخلوقات الله التى تدخر للمستقبل ، أما بقية الحيوانات فتأخذ حاجتها من الطعام فقط ، وتترك الباقى دون أنْ تهتمَّ بهذه المسألة ، أو تُشغَل برزق غد أبداً ، لا يأكل أكثر من طاقته ، ولا يدخر شيئاً لغده .

لذلك يُذكِّر الله عباده بمسألة الرزق لأهميتها فى حياتهم ، ومن عجيب أمر الرزق أنه أعرَفُ بمكانك وعنوانك ، منك بمكانه وعنوانه ، فإنْ قُسم لك الرزق جاءك يطرق عليك الباب ، وإنْ حُرِمت منه أعياك طلبه .

ومن أوضح الأمثلة على أن الرزق مقسوم مقدَّر من الله لكل منا أن المرأة حين تحمل يمتنع عنها الحيض الذى كان يأتيها بشكل دوريٍّ قبل الحمل ، فأين ذهب هذا الدم ؟ هذا الدم هو رزق الجنين فى بطن أمه لا يأخذه ولا يستفيد به غيره حتى الأم .

فإنْ قُدِّر الجنين تحول هذا الدم إلى غذاء له خاصة ، فإنْ لم يُقدَّر للأم أنْ تحمل نزل منها هذا الدم على صورة كريهة ، لا بُدَّ من التخلص منه ؛ لأنه ضار بالأم إنْ بقى لا بُدَّ من نزوله ، لأنه ليس رزقها هى ، بل رزق ولدها فى أحشائها ، ولو لم يكُنْ هذا الدم رزْقاً للجنين لكانت الأم تضعف كلما تكرَّرت لها عملية نزول الدم بهذه الصورة الدورية . إذن : لكل منا رزْق لا يأخذه غيره .

لذلك يقول أحد الصالحين : عجبتُ لابن آدم يسعى فيما ضُمِن له ويترك ما طُلِب منه .

فربك قد ضمن لك رزقك فانظر إلى ما طُلب منك ، واشغل نفسك بمراد الله فيك ؛ لذلك نتعجب من هؤلاء المتسولين الذين كنا نراهم مثلاً في مواسم الحج ، وشرُّهم مَنْ يعرضون عاهاتهم وعاهات أبنائهم على الناس يتسولون بها ، وكأنهم يشتكون الخالق للخَلْق ، ويتبرَّمون بقضاء الله ، والله تعالى لا يحب أن يشكوه عبده لخلقه .

والنبي ﷺ يقول : « إذا بليتم فاستتروا »[1] ووالله لو ستر أصحاب البلاء بلاءهم ، وقعدوا في بيوتهم لَساقَ الله إليهم أرزاقهم إلى أبوابهم .

إذن : الرزق مضمون من الله ؛ لذلك يمتنُّ به على عباده وينفيه عن هذه الآلهة الباطلة ﴿ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [العنكبوت] ثم يقول سبحانه ﴿ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [العنكبوت] فإنْ لم تعبدوه لأنه يرزقكم ويطعمكم ، فاعبدوه لأن مرجعكم إليه ووقوفكم بين يديه .

وكان يكفي أن نعمه عليكم مُقدَّمة على تكليفه لكم ، لقد تركك تربع في نعمه دون أنْ يُكلِّفك شيئاً ، إلى أنْ بلغتَ سِنَّ الرشد ، وهي سِنُّ النُّضْج والبلوغ والقدرة على إنجاب مثلك ، ثم بعد ذلك تقابل

(١) تمام هذا الحديث : « إذا بُليتم بالمعاصي فاستتروا » أورده العجلوني في كشف الخفاء (٨٧/١) (حديث ٢١١) وقال : رواه البيهقي والحاكم عن ابن عمر . والحديث الأوْلَى بالاستشهاد هنا هو ما أخرجه الحاكم في مستدركه (٣٤٩/١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : إذا ابتليت عبدي المؤمن ولم يشكُني إلى عواده أطلقته من إساري ثم أبدلته لحماً خيراً من لحمه ودماً خيراً من دمه ثم يستأنف العمل » . وصححه الحاكم على شرط الشيخين ، وأقره الذهبي ، والله تعالى أعلى وأعلم .

تكليفه لك بالجحود ؟ إن عبادة الله وطاعته لو لم تكن إلا شُكْراً له سبحانه على ما قدَّمه لك لكانت واجبة عليك .

وقوله تعالى : ﴿ وَاشْكُرُوا لَهُ .. (١٧) ﴾ [العنكبوت] لأن ربكم عز وجل يريد أن يزيدكم ، فجعل الشكر على النعمة مفتاحاً لهذه الزيادة ، فقال سبحانه : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ .. (٧) ﴾ [إبراهيم] فربُّك ينتظر منك كلمة الشكر ، مجرد أن تستقبل النعمة بقولك الحمد لله فقد وجبت لك الزيادة .

حتى أن بعض العارفين يرى أن الحمد لا يكون على نعَم الله التى لا تُعَدُّ ولا تُحصى فحسب ، إنما يكون الحمد لله على أنه لا إله إلا الله ، وإلا لو كان هناك إله آخر لَحِرْنا بينهما أيهما نتبع ، فالوحدانية من أعظم نعم الواحد سبحانه التى تستوجب الشكر .

وقد أعطانا الحق سبحانه مثلاً لهذه المسألة بقوله سبحانه : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ .. (٢٩) ﴾ [الزمر] يعنى : مملوك لشركاء مختلفين ، وليتهم متفقون ﴿ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ .. (٢٩) ﴾ [الزمر] أى : ملْك لسيد واحد ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً .. (٢٩) ﴾ [الزمر] فكذلك الموحِّد لله ، والمشرك به .

ولذلك يقول بعض الصالحين فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ .. (١٧٢) ﴾ [البقرة] فاللص الذى يأكل من الحرام يأكل رزقه ، فهو رزقه لكنه من الحرام ، ولو صبر على السرقة لأكله من الحلال ولساقه الله إليه .

فالمعنى أن الله خلقكم ورزقكم ، ولا يعنى هذا أنْ تُفلتوا منه ، فإنْ لم تُراعوا الجميل السابق فخافوا مما هو آت .

﴿ وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وإن تُكَذِّبُوا .. ﴿١٨﴾ ﴾ [العنكبوت] أى : ما قلنا لكم وما جاءكم به رسولنا ؛ لأن تصديقه سيُدخلكم مدخل التكليف ، ويحملكم مشقة المنهج ، وسيُضيِّق عليكم منطقة الاختيار ، والحق سبحانه قد شرَّفك حين أعطاك حرية الاختيار ، فى حين أن الكون كله لا اختيارَ له ؛ لأنه تنازل عن اختياره لاختيار ربه .

كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب]

فالكون كله مسخر يؤدى مهمته ، كما يقول سبحانه : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء]

وقال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الحج] فالقاعدة عامة ، لا استثناء فيها ، إلا عند الإنسان ، فمنهم الطائع ومنهم العاصى .

فالمعنى : ﴿ وَإِن تُكَذِّبُوا .. ﴿١٨﴾ ﴾ [العنكبوت] فلستم بدعاً فى التكذيب ﴿ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [العنكبوت] لكن يجب عليكم أن تتنبهوا إلى ما صنع بالأمم المكذِّبة ، وكيف كانت عاقبتهم ، فاحذروا أنْ يُصيبكم ما أصابهم ، هذه هى المسألة التى ينبغى عليكم التنبُّه لها .

وهنا وقف بعض المتمحكين يقول : كيف يقول القرآن فى خطاب قوم إبراهيم ﴿ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [العنكبوت] مع أنه لم يسبقهم إلا أمة واحدة هى أمة نوح عليه السلام ؟ يظنون أنهم وجدوا مأخذاً على القرآن .

ونقول : نعم ، كانت أمة نوح هى أمة الرسالة المقصودة بالإيمان ، لكن جاء قبلها آدم وشيث وإدريس ، وكانوا جميعاً فى أمم سابقة على إبراهيم ، أو نقول : لأن مدة بقاء نوح فى قومه طالت حتى أخذت ألف سنة من عمر الزمان ، وهذه الفترة تشمل قُرَابة العشرة أجيال ، والجيل - كما قالوا - مائة سنة ، كل منها أمة بذاتها .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ ﴾ [العنكبوت] فمهمته مجرد البلاغ . يؤمن به مَنْ يؤمن ، ويكفر مَنْ يكفر ، الرسول لن نعطيه مكافأة أو عمولة على كل مَنْ يؤمن به ، فإياكم أنْ تظنوا أنكم بكفركم تُقلِّلون من مكافأة النبى - خاصة وقد كانوا كارهين له - فالمعنى : علىَّ البلاغ فحسب ، وقد بلَّغت فسآخذ جزائى وأجرى من ربى ، فأنتم لا تكيدوننى بكفركم ، بل تكيدون أنفسكم .

لذلك كان نبينا محمد ﷺ يحزن أشد الحزن ، ويألم إنْ تفلَّت من يده واحد من أمته فكفر ، حتى خاطبه ربه : ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ .. ﴿٢٧٢﴾ ﴾ [البقرة]

وخاطبه بقوله : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾[الشعراء]

وحين نزل عليه ﷺ : ﴿ وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ [الضحى] انتهز النبى هذه الفرصة ودعا ربه : إذن

لا أرضى وواحد من أمتى فى النار[1] ؛ ذلك لأنه ﷺ مُحبٌّ لأمته ، حريص عليهم ، رؤوف رحيم بهم : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ[2] حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) ﴾ [التوبة]

ووصف الحق سبحانه البلاغ بأنه مبين . أى : واضح ظاهر ؛ لأن من البلاغ ما يكون مجرد عرض للمسألة دون تأكيد وإظهار للحجة التى تؤيد البلاغ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) ﴾

الخطاب هنا مُوجَّه إلى أمة محمد ﷺ : هؤلاء الذين كذبوا من قبل ، وأنتم الذين تكذبون الآن ، فأين عقولكم ؟ لو استعملتم عقولكم فى تأمل الكون الذى تعيشون فيه ، والذى طرأتُم عليه ، وقد أُعِدَّ لكم بكل مُقوِّمات حياتكم .

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ .. (١٩) ﴾ [العنكبوت] ويرى هنا بمعنى يعلم ، كما فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) ﴾ [الفيل] أى : ألم تعلم ؛ لأن رسول الله لم يَرَ حادثة الفيل ، وعدل عن (تعلم) إلى (ترى) ليلفت أنظارنا إلى أن إخبار الله

(١) أخرج الخطيب فى « تلخيص المتشابه » عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لا يرضى محمد ، وواحد من أمته فى النار . وأخرج البيهقى فى « شعب الإيمان » عن ابن عباس أيضاً أنه قال : رضاه أن تدخل أمته الجنة كلهم . انظر الدر المنثور للسيوطى (٨/٥٤٢).

(٢) العنت : المشقة . أى : أحبوا وتمنوا دوام عنتكم ودوام المشقات عليكم . [القاموس القويم ٢/٣٨] .

تعالى لرسوله ﷺ أوثق له من رؤيته بعينه .

ومن ذلك قول الصِّدِّيق أبى بكر لما سمع بحادث الإسراء والمعراج قال : « إنْ كان قال فقد صدق » .

والهمزة فى ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا .. (١٩)﴾ [العنكبوت] استفهام للتقرير ، كما تقول لولدك : ألم ترَ إلى فلان الذى أهمل دروسه ، تريد أنْ تنكر عليه أنْ يُهمل هو أيضاً ، فتقرره بعاقبة الإهمال ، وتدعه ينطقه بلسانه ، فيقول لك : الذى أهمل دروسه رَسَب .

وكما تقول لمَنْ أنكر جميلك : ألم أُحسن إليك بكذا وكذا ، فيُقر بها هو بدل أنْ تعددها له أنت ، فهذا أبلغ فى الاعتراف .

فساعة يأتى بعد الهمزة نَفْى يسمونه استفهاماً إنكارياً ، تنكر ما هم عليه ، وتريد أن تقررهم بما يقابله . والنفى بعد الإنكار نفى للنفى ، ونفى النفى إثبات .

فالمعنى : أيكذبون ولم يَرَوْا ما حدث للأمم المكذِّبة من قبل ؟ أيكذبون ولم يَروْا آيات الله ، وقدرته شائعة فى الوجود كله ؟ لقد كان عليهم أن ينظروا نظرة اعتبار ليعلموا مَنْ خلق هذا الخَلْق ، وإنك لو سألتهم : مَنْ خلق هذا الكون لا يجدون جواباً ، ولا يملكون إلا أنْ يقولوا : الله ، كما حكى القرآن : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٢٥)﴾ [لقمان]

لكن ، كيف يُقرُّون بهذه الحقيقة ويعترفون بها ، مع أنهم كافرون بالله ؟ قالوا : لأنها مسألة أظهر مَن أنْ ينكرها منكر ، فكل صاحب صنعة مهما كانت ضئيلة يفخر بها وينسبها إلى نفسه ، بل وينسب إلى نفسه ما لم يصنع ، فما بالك بكَوْن أُعدَّ بهذه الدقة وبهذه

العظمة ، ولم يدعه أحد لنفسه ؟ والدعْوى تثبت لصاحبها ما لم يَقُمْ لها معارض .

لذلك قلنا : إن الحق سبحانه قبل أن يقول لا إله إلا أنا ، وقبل أن يطلبها منا شهد بها لنفسه تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران] ؛ لأن هذه الشهادة هى التى ستجعله يقول للشىء : كُنْ فيكون ، ولو لم يكُنْ يؤمن بأنه إله ما قالها .

والحق سبحانه يقول : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [العنكبوت] كيف ونحن لم نَرَ الإعادة ، فضلاً عن رؤيتنا للبدء ؟

قالوا : نرى البدء والإعادة فى مظاهر الوجود من حولنا ، فنراها فى الزرع مثلاً ، وكيف أن الله تعالى يُحيى الأرض بالنبات ، ثم يأتى وقت الحصاد فيحصد ويتناثر منه الحَبّ أو البذور التى تعيد الدورة من جديد . والوردة تجد فيها رطوبة ونضارة وألواناً بديعة ورائحة زكية ، فإذا قُطفَتْ تبخَّر منها الماء ، فجفَّتْ وتفتتت ، وذهبت رائحتها فى الجو ، ثم تخلفها وردة أخرى جديدة ، وهكذا .

انظر مثلاً إلى دورة الماء فى الكون : هل زادتْ كمية الماء التى خلقها الله فى الكون حين أعدَّه لحياة الإنسان منذ خلق آدم وحواء ؟ الماء هو هو حتى الآن ، مع ما حدث من زيادة فى عدد السكان ؛ لأن عناصر الكون هى هى منذ خلقها الله ، لكن لها دورة تسير فيها بين بَدْء وإعادة .

واقرأ إن شئت قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. ﴿١٠﴾ ﴾ [فصلت]

فكأن قوت العالم من الزرع وغيره مُعَدٌّ منذ بَدْء الخليقة ، وإلى أنْ تقوم الساعة لا يزيد ، لكنه يدور فى دورة طبيعية .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾ [العنكبوت] أيهما : الخَلْق أم الإعادة ؟ أما الخلق فقد أقرُّوا به ، ولا جدالَ فيه ، إذن : فالكلام عن الإعادة ، وهل الذى خلق من عدم يعجز عن إعادة ما خلق ؟ الخَلْق الأول من عدم ، أما الإعادة فمن موجود ، فأيهما أهون فى عُرْفكم وحسب منطقكم ؟

لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الروم] مع أن الحق سبحانه لا يُقال فى حقِّه : هذا هيِّن ، وهذا أهون ؛ لكنه سبحانه يخاطبنا بما تفهمه عقولنا .

ثم يخاطب الحق سبحانه محمداً ﷺ :

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾

السير : الانتقال من مكان إلى مكان ، لكن نحن نسير فى الأرض أم على الأرض ؟ الحقيقة أننا كما قال سبحانه ﴿ قُلْ سِيرُوا فِى الأَرْضِ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [العنكبوت] أى : نسير فيها ؛ لأن الغلاف الجوى المحيط بالأرض من الأرض ، فبدونه لا تستقيم الحياة عليها ، إذن : حين تسير تسير فى الأرض فهى تحتك ، وغلافها الجوى فوقك ، فكأنك بداخلها .

والعلة فى السير ﴿ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [العنكبوت]

وفى آية أخرى ﴿ثُمَّ انظُرُوا .. (١١)﴾ [الأنعام] ؛ لأن السير من أرض لأخرى له دافعان : إما للسياحة والتأمل والاعتبار ، وإما للتجارة والاستثمار ، إنْ ضاق رزقك فى بلادك . فقوله : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا .. (٢٠)﴾ [العنكبوت] أى : نظر اعتبار وتأمل .

أما فى ﴿ثُمَّ انظُرُوا .. (١١)﴾ [الأنعام] فثم تفيد العطف والتراخى ، كأنه سبحانه يقول لنا : سيروا فى الأرض للاستثمار ، ثم انظروا نظرة التأمل والاعتبار ، ولا مانع من الجمع بين الغرضين .

وتذكرون أن الحق سبحانه قال فى السورة السابقة (القصص) : ﴿إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ .. (٨٥)﴾ [القصص] والمراد بذلك الهجرة ، وفى هذه السورة تأتى : ﴿يَـٰعِبَادِىَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِى وَاسِعَةٌ فَإِيَّاىَ فَاعْبُدُونِ (٥٦)﴾ [العنكبوت]

والمعنى : إن ضاق رزقك فى مكان فاطلبه فى مكان آخر ، أو : إنْ لم تكُنْ الآيات الظاهرة لك كافية لتشبع عندك الرغبة فى الاعتبار والتأمل فسرْ فى الأرض ، فسوف تجد فيها كثيراً من الآيات والعبَر فى اختلاف الأجناس والبيئات والثمار والأجواء .. إلخ .

لذلك يقول سبحانه :

﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا .. (٩٧)﴾ [النساء]

فالأرض كلها لله لا حدودَ فيها ، ولا فواصلَ بينها ، فلما قسَّمها الناس وجعلوا لها حدوداً تمنع الحركة فيها حدثت كثير من الإشكالات ، وصَعُبَ على الناس التنقل للسياحة أو لطلب الرزق إنْ ضاق بأحد رزقه .

وها هى السودان بجوارنا بها مساحات شاسعة من الأراضى الخصْبة التى إنْ زُرعت سدَّتْ حاجة العالم العربى كله ، أنستطيع

الذهاب لزراعتها ؟ ساعتها سيقولون : جاءوا ليستعمرونا .

لذلك لما أتيح لى التحدث فى هيئة الأمم قلت : إنه لا يمكن أنْ تُحلَّ قضايا العالم الراهنة إلا إذا طبَّقنا مبدأ الخالق - عز وجل - وعُدْنا إلى منهجه الذى وضعه لتنظيم حياتنا ، وكيف نضع بيننا هذه الحدود الحديدية والأسلاك الشائكة ، وربنا يقول : ﴿ **وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ** ﴿١٠﴾ ﴾ [الرحمن]

فالأرض كلُّ الأرض للأنام كل الأنام[1] ، ويوم نحقق هذا المبدأ فلن يضيق الرزق بأحد ، لأنه إنْ ضاقَ بك هنا طلبته هناك ؛ لذلك أكثر الشكوى فى عالم اليوم إمَّا من أرض بلا رجال ، أو من رجال بلا أرض ، فلماذا لا نُحدث التكامل الذى أراده الله فى كونه ؟

إذن : فالسير هنا مترتب عليه الاعتبار ﴿ **كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ** .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [العنكبوت] وما دُمْنا قد آمنا بأن الله تعالى هو الخالق بداية ، فإعادة الخَلْق أهون ، كما قال سبحانه : ﴿ **أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ** .. ﴿١٥﴾ ﴾ [ق] فيشكُّوا فى الخَلْق الآخر ؟ لذلك يؤكد الخالق سبحانه هذه القدرة بقوله :

﴿ **إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴿٢٠﴾ ﴾ [العنكبوت]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ **يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ** ﴿٢١﴾ ﴾

لماذا بدأ الحق سبحانه هنا بذكر العذاب ؟ فى حين قدَّم المغفرة

---

(١) الأنام : ما ظهر على الأرض من جميع الخلق . وقال المفسرون : هم الجن والإنس . [لسان العرب - مادة : أنم] .

في آية أخرى : ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ .. (١٨) ﴾ [المائدة]

قالوا : لأن الكلام هنا عن المكذِّبين المعرضين وعن الكافرين ، فناسب أنْ يبدأ معهم بذكر العذاب ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ .. (٢١) ﴾ [العنكبوت] فإنْ قُلْتَ : فلماذا يذكر الرحمة مع الكافرين بعد أنْ هدَّدهم بالعذاب ؟ نقول : لأنه رب يهدد عباده أولاً بالعذاب ليرتدعوا وليؤمنوا ، ثم يُلوِّح لهم برحمته سبحانه ليُرغِّبهم في طاعته ويلفتهم إلى الإيمان به .

وقد صَحَّ في الحديث القدسي : « رحمتي سبقت غضبي »[1] ففي الوقت الذي يُهدِّد فيه بالعذاب يُلوِّح لعباده حتى الكافرين بأن رحمته تعالى سبقتْ غضبه .

وقوله سبحانه : ﴿ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) ﴾ [العنكبوت] أي : تُرجعون ، وجاء بصيغة تقلبون الدالة على الغَصْب والانقياد عَنْوة ليقول لهم : مهما بلغ بكم الطغيان والجبروت والتعالي بنعم الله ، فلا بُدَّ لكم من الرجوع إليه ، والمثول بين يديْه ، فتذكَّروا هذه المسألة جيداً ، حيث لا مهربَ لكم منها ؛ لذلك كان مناسباً أنْ يقول بعدها .

﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٢٢) ﴾

(معجزين) : جمع معجز ، وهو الذي يُعجز غيره ، تقول : أعجزتُ فلاناً يعني : جعلته عاجزاً ، والمعنى أنكم لن تفلتوا من الله ،

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « لما قضى الله الخلق كتب في كتابه ، فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي غلبت غضبي » أخرجه البخاري في صحيحه (٣١٩٤ ، ٧٤٠٤ ، ٧٤٢٢) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٧٥١) كتاب التوبة .

ولن تتــأبَّوْا عليــه ، حــين يريدكم للوقــوف بين يديـه ، بل تأتون صاغرين .

ونلحظ هنا أن الحق سبحانه قال : ﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ .. (٢٢) ﴾ [العنكبوت] ولم يقل مثـلاً : لن تعجزونى حيـن أطلبكم ؛ لأن نفىَ الفعل غيـر نفى الوصف ، فحين تقول مـثلاً : أنت لا تخيط لى ثوباً ، فـهذا يعنى أنه يستطيع أنْ يخـيط لك ثوباً لكنه لا يريد ، فالقدرة مـوجودة لكن ينقصـها الرضا بمزاولة الفعل ، إنما حين تقول : أنت لستَ بخائط فقد نفيتَ عنه أصل المسألة .

لذلك لم ينْفِ عنهم الفـعل حتى لا نتـوهم إمكانية حـدوثه منهم ، فالهـرب والإفلات من لقـاء الله فى الآخرة أمـر غيـر وارد على الذِّهْن أصلاً ، إنمـا نفى عنهم الوصف من أسـاسه ﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ .. (٢٢) ﴾ [العنكبوت]

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٢٢) ﴾ [العنكبوت] حتى لا يقول قائل : إنْ كانوا هم غيـر معجزين ، فقد يكون وراءهم مَنْ يُعـجز الله ، أو وراءهم مَنْ يشـفع لهم ، أو يدافع عنهم ، فنفى هذه أيضاً لأنه سبحانه لا يُعجزه أحد ، ولا يُعجزه شىء .

لذلك خاطبـهم بقوله : ﴿ مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ (٢٥) ﴾ [الصـافات] أين الفتوات الأقوياء ينصرونكم ؟

فنفى عنهم الولى ، ونفى عنهم النصير ؛ لأن هناك فَـرْقاً بينهما : الولىّ هو الذى يقـرب منك بمودة وحُـبٍّ ، وهذا يستطيع أنْ ينصـرك لكن بالحُسْنى وبالسيـاسة ، ويشفع لك إن احتجتَ إلى شفـاعته ، أمّا النصير فهو الذى ينصرك بالقوة و (الفتونة) .

وهكذا نفى عنهم القدرة على الإعجاز ، ونفى عنهم الولى والنصير ، لكن ذكر ﴿مِن دُونِ اللَّهِ .. (٢٢)﴾ [العنكبوت] يعنى : من الممكن أن يكون لهم ولىٌّ ونصير من الله تعالى ، فإنْ أرادوا الولى الحق والنصير الحق فليؤمنوا بى ، فأنا وليُّهم وأنا نصيرهم .

وكأنه سبحانه يقول لهم : إنْ تُبْتم ورجعتم عما كنتم فيه من الكفر واعتذرتم عما كان منكم ، فأنا وليُّكم وأنا نصيركم .

وفى موضع آخر قال : ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٥)﴾ [العنكبوت] ولم يقل من دون الله ؛ لأن الموقف فى الآخرة ، والآخرة لا توبةَ فيها ولا اعتذار ولا رجوع ، فقوله ﴿مِن دُونِ اللَّهِ .. (٢٢)﴾ [العنكبوت] لا تكون إلا فى الدنيا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣)﴾

فإنْ أصرَّ الكافر على كُفْره وعبادته للأصنام التى لا تنفع ولا تضر ، ولم تُجْد معه موعظة ولا تذكير فلا ملجأ له ولا منفذ له إلى رحمة الله ؛ لأنه عبد أولياء لا ينفعونه بشىء وكفر بى ، فليس له مَنْ يحميه منى ، ولا مَنْ ينصره من الأصنام التى عبدها ، فليس له إلا اليأس .

واليأس : قَطْع الرجاء من الأمر ، وقد قطع رجاء الكافرين ؛ لأنهم عبدوا ما لا ينفع ولا يضر ، وكفروا بمَنْ بيده النفع ، وبيده الضُّر .

وقلنا : إن المراد بآيات الله إما الآيات الكونيـة التى تُثبت قدرة الله ، وتلفت إلى حكمة الخالق ـ عز وجل ـ كـالليل والنهار والشمس والقمر . أو آيات المـعـجـزات التى تصـاحب الرسل ؛ ليـؤيدهم الله بهـا ويُظهـر صدْقهم فى البلاغ عن الله ؛ فكفروا بآيات القرآن الحاملة للأحكام .

وقـد كفـر هؤلاء بكل هذه الآيات ، فـلم يُصدِّقـوا منهـا شـيئـاً ، وما داموا قد كفروا بهـذه الآيات ، وكفروا أيضاً بلقاء الله فى الآخرة ؛ فرحمة الله بعيدة عنهم ، وهم يائسون منها .

لذلك كانت عاقبتهم ﴿ وأُولَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣) ﴾ [العنكبوت]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) ﴾

كنا ننتظر منهم جواباً منطقياً ، بعد أنْ دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شـريك له ، وبيَّـن لهم بطلان عـبـادة آلهـتـهـم ، وأنهـا لا تضـر ولا تنفع ، كـان عليـهم أن يجادلوه ، وأن يدافـعـوا عن آلهـتـهم ، وأن يُظهروا حجتهم فى عبادتهم .

إنما يأتى جوابهم دالاً على إفلاسهم ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ .. (٢٤) ﴾ [العنكبوت] أهذا جواب على ما قيل لكم ؟ إنه مجـرد هروب من المواجهـة ، وإفلاس فى الحجـة ، إنه جواب مَنْ لم يجـد جواباً ، وليس لـديه إلا التهـديد والتلويح بالقـوة وبالبطش ، فهذه لغة مَنْ لا حجة عنده .